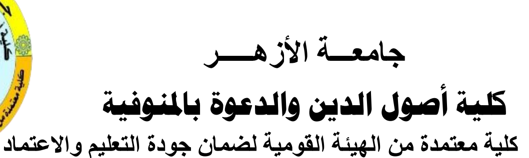




المآخذ العلمية لقراءة النص الحداثية المعاصرة وأثرها على التفسير

إعداد

د/ عقيل بن سالم الشمري

قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة حفر الباطن، المملكة العربية السعودية

مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية العدد الثالث والأربعون، لعام ١٤٤٥هـ يونيو ٢٠٢٤م والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢٤/٦١٥٧
والترقيم الدولي الطباعي **I.S.S.N 2974-4660** و **The Online ISSN 2974-4679**



المآخذ العلمية لقراءة النص الحداثية المعاصرة وأثرها على التفسير

عقيل بن سالم الشمري
قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة حفر الباطن، المملكة العربية السعودية
البريد الالكتروني: Ageel0001@gmail. com

ملخص البحث:

فكرة البحث الرئيسة:

هي بيان المآخذ العلمية للمدرسة الحداثية في قراءتها للنص القرآني، وبيان أثر تلك القراءة على علم التفسير، **وسلكت منهج** الاستقراء لكلام رموز تلك المدرسة، واكتفيت بأصول تلك الأقوال مما يرتبط بالمنهج العلمي لهم.

والهدف من الدراسة:

إظهار أبرز العيوب العلمية والمنهجية على المدرسة الحداثية في قراءتها للنص القرآني.

وأبرز النتائج التي توصل لها البحث هي:

١. عدم انضباط المدرسة الحداثية بالمنهج العلمي في قراءتها للنص القرآني.

٢ـ ظهور حيرة في قراءة النص القرآني عند المدرسة الحداثية، وتضارب في المعاني المحتملة، دون معالجة ذلك بقواعد منهجية.

٣ـ افتراض حقيقة غائبة في أذهان أصحاب المدرسة الحداثية عند قراءة النص القرآني.

٤. العودة على النص القرآني بعكس غايته، فغاية النص القرآني الاهتداء.

ومن آثار القراءة المعاصرة القرآن على علم التفسير:

١. إبطال الغاية من النص.

٢. انشغال القارئ بفك الرموز بدلاً من الاهتداء بالنص.

٣. إلغاء فهم الصحابة ﷺ، وغيرها مما ذكر في ثنايا البحث.

<u>وأوصي بالآتي</u>:

١. بحث المرجع الفكري للقراءة المعاصرة في القديم والحديث.

٢. بحث علاقة المدرسة الحداثية ببعض أقوال السلف وتوظيفهم لها.

الكلمات المفتاحية: مآخذ، العلمية، قراءة، النص، الحداثية، التفسير.



Scientific drawbacks of contemporary modernist text reading and their impact on interpretation

Ageel bin Salem Al-Shammari
Department of Islamic Studies، College of Arts، University of Hafr Al-Batin، Kingdom of Saudi Arabia
Email: Ageel0001@gmail. com

Abstract:

The main research idea is to explain the scientific drawbacks of the modernist school in its reading of the Qur'anic text، and to explain the impact of that reading on the science of interpretation. I followed the inductive approach to the words of the symbols of that school، and was content with the origins of those sayings that are related to their scientific approach. The aim of the study is to show the most prominent scientific and methodological defects of the modernist school in its reading of the Qur'anic text. The most prominent results reached by the research are: - The modernist school's lack of adherence to the scientific method in its reading of the Qur'anic text. - The emergence of confusion in reading the Qur'anic text according to the modernist school، and conflict in the possible meanings، without addressing this with systematic rules. - Assuming an absent truth in the minds of the followers of the modernist school when reading the Qur'anic text. I recommend the following:
1- Research the intellectual reference for contemporary reading in ancient and modern times. 2- Discussing the relationship of the modernist school to some of the sayings of the predecessors and their use of them.

Keywords: intakes، scientific، reading، text، modernism، interpretation.





المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

فالقرآن عصمةٌ من الفتن إذا أُخذ بفهم الجيل الذي عاصره وشاهد نزوله، وهم الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان.

فلما انتشرت الأهواء انحرفت المناهج حتى كان العصر الحديث فبرزت المدرسة الحداثية وأسست منهجًا خاصًا بها، ولما كان رموز هذه المدرسة ينشرون أفكارهم كان لِزامًا على أهل الاختصاص أن يبينوا ما فيها من الباطل، ويقوموا بواجب الوقت، فكتبتُ هذا البحث بعنوان **(المآخذ العلمية لقراءة النص الحداثية المعاصرة وأثرها على التفسير)** حسب الآتي:

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- ظهور المدرسة الحداثية المعاصرة مما اقتضى بيان باطلها.

٢- ظهور تأويلات لأصحاب المدرسة الحداثية للقرآن الكريم.

٣- تأصيل المدرسة الحداثية لأفكارها وانتقالها من الفكرة إلى المنهج فاقتضى ذلك بيانهم.

٤- بيان أثر مناهج المدارس الحداثية على علم التفسير.

أسئلة البحث: وهي:

١- ما المراد بالمدرسة الحداثية؟

٢- ما هي أبرز الانتقادات العلمية على أُطروحات هذه المدرسة؟



٣- ما أثر تلك النظريات الحداثية على علم التفسير؟

أهداف البحث:

يهدف البحث لتحقيق ما يلي:

١- إيضاح معنى المدرسة الحداثية.

٢- بيان أبرز نظريات المدرسة الحداثية في قراءة النص.

٣- بيان المآخذ العلمية على نظريات المدرسة الحداثية.

٤- بيان أثر تلك النظريات على علم التفسير.

الدراسات السابقة:

هناك الكثير من الدراسات التي تناولت علاقة المدرسة الحداثية، ومنها:

١ــــ الحداثة والنص القرآني، محمد رشيد ريان، وهي رسالة ماجستير في الجامعة الأردنية، وذكر فيها بعض تأويلاتهم مع مناقشتها مناقشة طيبة من خلال مناهج العلم المعروفة، وسيضيف بحثي له أثر القراءة الحداثية على التفسير.

٢ــ إشكالية قراءة الصن القرآني في الفكر العربي المعاصر. نصر حامد أبو زيد نموذجًا، للباحث إلياس قويسم، وهي رسالة جميلة اختصت بمشروع حامد أبو زيد تحديدًا، وفيها الكثير من الأمثلة الحداثية في تفسير الآيات القرآنية.

٣. دعوى القراءة المعاصرة للقرآن الكريم، دراسة تحليلية، د. أحمد قباوة، وأصله رسالة دكتوراه، قامت بطباعته الهيئة العامة للعناية بطباعة ونشر القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومها، وهو أوسع ما اطلعت عليه من رسائل، قسمه الباحث إلى ثلاثة أبواب كبرى، الأول منها: مضمون النص القرآني في القراءة المعاصرة تحليل ونقد، والثاني: طبيعة النص القرآني في القراءة المعاصرة تحليل ونقد، والثالث: مناهج القراءة المعاصرة للقرآن الكريم وقواعدها، وهو كتاب ضخم حافل، وما أقدمه من بحث هو في جمع جزئية محددة وهي الانتقادات العلمية على القراءة



المعاصرة.

خطة البحث:

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه إلى مقدمة فيها ثلاث مسائل، ومبحثين وتحتهما ستة مطالب ثم خاتمة كما يلي:

أولًا: تعريف الحداثة في اللغة والاصطلاح.

ثانيًا: مفهوم القراءة المعاصرة عند الحداثيين.

ثالثاً: مرتكزات المدرسة الحداثية فيما يتعلق بتفسير القرآن.

المبحث الأول: الانتقادات العلمية للقراءة الحداثية المعاصرة وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تأثير الخلفيات السابقة للقارئ.

المطلب الثاني: افتراض حقيقة غائبة.

المطلب الثالث: حيرة النص وتضارب المعاني المحتملة.

المطلب الرابع: إلغاء قرائن النصوص.

المطلب الخامس: استنطاق النص بما لا يحتمله.

المطلب السادس: تصرف القارئ بما يعود على النص بالإبطال

المبحث الثاني: آثار القراءة المعاصرة على علم التفسير وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: إبطال الغاية من النص.

المطلب الثاني: انشغال القارئ بفك الرموز بدلاً من الاهتداء بالنص.

المطلب الثالث: إلغاء فهم الصحابة رضي الله عنهم.

المطلب الرابع: إلغاء المعنى دون اكتشافه.

المطلب الخامس: تفسير الرموز وليس النصوص.

المطلب السادس: ضياع معيار قياس الصواب والخطأ.

الخاتمة: وفيها بيان خلاصة البحث.



منهج البحث:

سلكتُ المنهج الاستقرائي لأصحاب المدرسة الحداثية، وسرت حسب ما يلي:

١. عزوت الآيات إلى مواضعها.

٢ـ خرجت الأحاديث من كتب السنة مع قلة ما ورد في البحث بسبب طبيعته، مع تقديم ما ورد في الصحيحين على غيرهما.

٣. جمعت نصوص أهل المدرسة التأويلية، مع تحليل تلك النصوص.

٤ـ عرفت بالأسماء الواردة في البحث ممن هو من أصحاب المدرسة الحداثية، مع ذكر أشهر مؤلفاتهم.

٥. إثبات علامات الترقيم وفق قواعد الفن.

وأخيرًا أسأل الله الإعانة والتوفيق، هو ولي ذلك، نعم المولى.



أولًا: تعريف الحداثة في اللغة والاصطلاح.

التعريف اللغوي للحداثة:

معنى الحداثة في اللغة يرجع إلى أصل "الحاء والدال والثاء وهو كون الشيء لم يكن، يقال: حَدَثَ أمرٌ بعد أن لم يكن"(١). وقال ابن منظور في لسان العرب: "والحدوث كون شيءٍ لم يكن"(٢). وبهذا يتبين أن لفظ الحداثة نسبي المعنى،

التعريف الاصطلاحي للحداثة:

لفظ الحداثة له أكثر من تعريف والغريب أنها مختلفة في اتجاهاتها، فيراها علي حرب أنها "جهد يمارسه الفكر على نفسه لا يتوقف، وانفتاح أقصى على الكون"(٣)، ويرى غيره بأنها حركة تفكيكية تستمد معناها من رفض ما حدث قبْلًا(٤). بينما حسن حنفي لا يفضل مصطلح الحداثة وإنما يفضل كلمة الاجتهاد(٥).

ومن هنا أصبح من الصعب تحديد تعريفٍ جامع مانع لها عند المجتمع المسلم مما اضطر بعض الباحثين إلى تتبعها عند الغربيين للخروج بتعريف أكثر دقة، ومن تلك التعريفات ما قاله جيف فاونتاين إنها: "سلسلة من التحولات في المجتمع المعاصر قائمة على أساس التمدن والتصنيع والتكنولوجيا والتي أصبحت أساسًا لفكرة الشك الديني وعدم الاعتقاد بصحة الكتب المقدسة "(٦)، فنستنتج من **تعريفه ما يلي:**

---

(١) معجم مقاييس اللغة مادة حدث، ٣٦/٢.

(٢) لسان العرب ١٣١/٢.

(٣) أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر مقاربات وسجالية، ص٥٨.

(٤) الحداثة والحداثية المصطلح والمفهوم، ص٤٧.

(٥) الخطاب الإسلامي المعاصر محاورات فكرية، ص٤٥.

(٦) نقلًا عن "ما بعد الحداثة"، ص٤٧.



١. أن الحداثة تقوم على الرفض لكل ماهو قديم.

٢. تقوم على التمدن والتكنولوجيا.

٣. التشكيك في صحة الكتب الدينية.

وعلى هذا فيمكن تعريف الحداثة بأنها: "مذهب فكري يُبنى على أفكار وعقائد ماركسية ووجودية وداروينية، وقد أفاد من المذاهب الفلسفية والأدبية التي سبقته في مجتمعات الغرب"(١).

ويقصد بالاتجاه الحداثي: "مجموعة الكتاب المعاصرين الذين يشتركون في تبني عدة أفكار مثل: الذاتية، والعقلانية، والعلمانية، ونسبية الحقيقة، وفتح باب التأويل، وإعادة فهم النصوص فهمًا جديدًا، مأخوذة في الغالب من تراث الغرب النقدي والألسني"(٢).

وقد بيَّن بعض الباحثين أن مصطلح الحداثة لم يكن اختياره عفويًا، وإنما يُراد منه أن يَفهم السامع أن الحديث ضد القديم الذي هو الوحي(٣).

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/٩٢٥.

(٢) موقف الاتجاه الحداثي من الإمام الشافعي، ص٧.

(٣) الحداثة في العالم العربي، محمد العلي، ص٣٠.



ثانياً: مفهوم القراءة المعاصرة عند الحداثيين:

مما يثير الاستغراب ترك الحداثيين لمصطلح معروف كمصطلح التفسير والتأويل إلى مصطلح القراءة، وتواطؤهم على ذلك، وقد صرح عبد المجيد الشرفي عن السبب وراء ذلك فقال: " لئن آثرنا تجاوز مصطلحي التفسير والتأويل إلى استعمال مصطلح القراءة؛ فلأن التعامل مع (النصّ التأسيسي)... يحتمل نظريًّا – بحكم أزليّته– عددًا لا متناهيًا من المعاني، فسمة الإطلاق فيه تجعله يستوعب قراءات"(١)، فالسبب يرجع إلى أن مصطلح التفسير والتأويل مصطلح منهجي، له ضوابطه وطريقته التي يحتكم إليها، وليس كذلك لفظ القراءة فهي ترجع إلى فهم القارئ، ولهذا ينفتح للحداثيين باب القول بالظنون والتخمينات والتخرصات.

وقد استعمل مصطلح القراءة مرادفًا للتفسير في أقسام الدراسات الشرقية بفرنسا، وذلك بمحاولة وضع منهج غربي حديث للتعامل مع القرآن يغني عن أصول التفسير(٢).

فما يسمونه بالقراءة المعاصرة هو إلصاق ما يريدون من مبادئ وقيم بالقرآن الكريم وذلك بِلِيِّ أعناقها أو توسيع إطارها إلى حد لا نهائية المعنى(٣)، وهذا ما يؤكد على مضاعفة الجهد في فهم القرآن على ضوء اللغة العربية وأساليبها، وإذا قلنا بفهم القرآن من خلال لغة العرب فنحن لا ننفي فهم السلف، إذ أن فهمهم

---

(١) في قراءة النص، ص٩٤.

(٢) علم التفسير في كتابات المستشرقين، د. عبد الرزاق هرماس، ص٩٩العدد ٢٥ مجلة جامعة أم القرى.

(٣) تحريف معاني النصوص في المدرسة الحداثية، ص٣٤، والنص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، د. قطب الريسوني، ص٢٩٤.



يكون كالبوصلة لنا تحدد لنا مسار الفهم إذا تعددت معاني اللغة العربية. وهذا يفسر لنا سر اهتمام القراءة الحداثية بالتفاسير الباطنية والإلحادية[١]؛ لأنها تجد فيها تفسيرات تخرج عن إطار العربية وفهم السلف، وتفتح المجال أمام الأهواء في تفسير النصوص.

ثالثاً: **مرتكزات المدرسة الحداثية فيما يتعلق بتفسير القرآن**:

للمدرسة الحداثية مع تفسير القرآن عدة مرتكزات، منها:

أولًا: **إن معاني الألفاظ القرآنية غير منتهية**

ألفاظ القرآن عربية كما قال تعالى: ﴿قرآنًا عربيًا﴾ ومن دلائل عربية لفظِهِ أن معانيه مرتبطة باللفظ، واللفظ له معانٍ محددة لا يمكن له أن يتجاوزها.

وبعض ألفاظ القرآن لها أكثر من معنى بالنسبة لغيرها من الألفاظ وليس معنى تعدد معانهيا انفتاح المعنى إلى معانٍ كثيرة مفتوحة لكل من أراد أن يلحق معنى زائد! كما أن هذه المعاني المتعددة لابد أن تجد بينها رابطًا يربطها باللفظ، فهناك ما يصح أن يسمى القاسم المشترك بينها، ومن هنا شدَّد أهل التفسير بذكر قواعد للتفسير مستمدة من قواعد اللغة العربية[٢]. لا كما يزعم رواد المدرسة الحداثية من انفتاح المعنى وتعدده إلى كل المستويات، فيقولون: "النص يتسع للكل، ويتسع لكل الأوجه والمستويات"[٣]، ويقول أركون: "فالقرآن هو نصٌ مفتوح لجميع المعاني ولا يمكن لأي تفسير أو تأويل أن يغلقه أو يستنفذه بشكل نهائي"[٤].

---

(١) تحريف معاني النصوص في المدرسة الحداثية، ص٨.

(٢) انظر تلك القواعد في الإتقان للسيوطي ١/٣٩٧.

(٣) نقد الحقيقة، ص٢٠

(٤) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، د. محمد أركون، ص١٤٥.

إن هذه النظرية الحداثية تعود على النص بالإبطال، فما من معنى يظهر ويبين إلا ويخلفه معنى آخر يخالفه ويلغيه، فقد ظهرت نظرية النص والتي تسمى الصنمية النصية، ثم نظرية المؤلف، ثم نظرية التلقي التي جاءت كردة فعل لانغلاق النص[1]، وتعتبر أحد أهم انتصارات الحداثة وما بعد الحداثة لأن انتقلت من الاهتمام بالكاتب والنص إلى المتلقي والقارئ[2].

ثانيًا: تفريغ النصوص القرآنية من قداستها ومقاصدها:

مقصد القرآن هو هداية الناس ودلالتهم لرب العالمين وإرشادهم، كما قال تعالى: {يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا}. ومن هنا اكتسب النص القرآني قداسته وعظمته عندنا أهل الإسلام، بينما المدرسة الحداثية تفرغ النص القرآني من تلك القداسة والعظمة فتجعله كنص بشري يُمارَس عليه أدوات القراءة الأخرى، يقول نصر حامد: "القرآن نصّ مقدّس من ناحية منطوقه، ولكنه يصبح مفهومًا بالنسبي والمتغيّر، أي: من جهة الإنسان، ويتحوّل إلى نسب إنساني (يتأنسن) "[3]، ويصرح أكثر من ذلك بقوله: " تحوَّل من كونه نصًّا إلهيًّا، وصار فهمًا نصًّا إنسانيًّا"[4]، ويلزم على هذا بأن المفاهيم والدلالات المستنبطة والأفهام التي شرحت النص القرآني لا اعتبار لها، سواء كان فهم الصحابي أو غيره من أفهام الناس، ويلزم أيضًا لازم أشد من ذلك وهو أن النص القرآني إذا فسره النبي صلى الله عليه وهو بشر فهذا يدل على أن تفسيره غير ملزم لنا، لأنه فسره بأدوات وأفهام البشر، وواضح أن هذا عبث بالنص القرآني وليس شرحًا وتوضيحًا، إن هذه الأقوال لا تنبي مفسرًا منضبطًا بمنهج مقبول، إنما تبني عقلًا يرد ما يشاء ويختار ما يشاء، وهو الهوى الذي حذرنا الشارع الحكيم

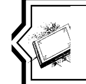
---

(١) انظر مقال: مفهوم القراءة عند الحداثيين وعلاقته بالتفسير، فاطمة الزهراء الناصري. الشبكة العنكبوتية.

(٢) الحداثة والتلقي، عمر عبود، ص٨٧.

(٣) الخطاب الديني رؤية نقدية، ص٦٤.

(٤) نفس المرجع السابق.



منه. وقد أحسن علماؤنا الأفاضل بذكر شروط المفسر وقواعد التفسير وقواعد الترجيح وأصول التفسير وغيرها مما يجعل المفسر منضبطًا في تفسيره وتناوله للآيات، حتى علم التدبر المتعلق بالاستنباط وُضع له شروطٌ وضوابط.

ومما لا يفوت بيانه أن كل نظرية أُنشئت في الغرب فلها ظروفها الخاصة بها، ومن الخطأ تطبيقها على مكان مختلف من حيث الظروف والمنهج.

ثالثًا: إلغاء الأفهام التي تفسر النص القرآني

إن أبرز ما ترتكز عليه النظريات الحداثية هو إلغاء أي فهم يمكن أن تُفسر به النصوص القرآنية، مع أن الضرورة العلمية والمنطقية تقرر الاعتماد على الأصول والضوابط في تفسير النصوص القرآنية، ومن تلك الأصول التقيد بفهم الصحابة الكرام في تفسيرهم للقرآن، وهنا قد يغلط البعض في الخلط بين ما يُستنبط من النص من دلالات وأحكام ومقاصد، وبين معنى النص القرآني العربي الظاهر المبين. ومن هنا نجد علم أصول التفسير يفتح المجال أمام استنباط دلالات النصوص وأحكامها وحكمها ويعتبر ذلك من فتح الله على عباده، وهذا فضل الله يؤتيه الله من يشاء، بينما نجد علم أصول التفسير نفسه يمنع أن يفهم القرآن بغير قواعد لغة العرب وأفهام الصحابة الذين هم أساس معرفة معاني القرآن، ويجعل مشاهدة نزول الوحي ومعايشة أحداثه علامة بارزة للصحابة الكرام في تقديم أفهامهم على غيرهم.

وهذا المرتكز يعتبر صبغةً لكل الاتجاهات الحداثية مع اختلافها، ولهذا جاء وصف الحداثة في الموسوعة العربية العالمية بقولهم: "ونادت بضرورة إعادة تفسير الدين، وقراءة النصوص الدينية في ضوء المعطيات العلمية والتاريخية والفلسفية التي وفرها القرن التاسع عشر، والنظر إلى الدين ونصوصه بعين ناقدة صارمة"(١).

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، ٩/٩٤.

المبحث الأول: الانتقادات العلمية للقراءة الحداثية المعاصرة.

وفيه ستة مطالب:

- **المطلب الأول: تأثير الخلفيات السابقة للقارئ.**
- **المطلب الثاني: افتراض حقيقة غائبة.**
- **المطلب الثالث: حيرة النص وتضارب المعاني المحتملة.**
- **المطلب الرابع: إلغاء قرائن النصوص.**
- **المطلب الخامس: استنطاق النص بما لا يحتمله.**
- **المطلب السادس: تصرف القارئ بما يعود على النص بالإبطال.**



كـان أهـل العلـم يتنـاولون شـرح الآيـات القرآنيـة وفـق منـاهج منضـبطة بقواعـد منهجيـة، ومـع تقـدم الـزمن تقـدمت الدراسـات القرآنيـة، وأصـبحت أكثـر تمكنًـا وعمقًـا، واسـتمر الحـال كـذلك حتـى اسـتعمرت الـبلاد الإسـلامية، ومـع دخـول المسـتعمر نشـر نظرياتـه وآلياتـه وقواعـد الفكريـة، ومـع قـوة المسـتعمر وضـعف العـالم الإسـلامي تزعزعـت الثقـة بـالموروث الشـرعي، "وأصـبح المنبهـرون ينظـرون لمـا اسـتقر عنـدنا مـن حقـائق علـى أنهـا فرضـيات لا تقـوى علـى منافسـة ذلـك الوافـد"[١]، ثـم ظهـرت مشـاريع فـي بدايـة القـرن العشـرين متجهـة للـنص القرآنـي، تـدعو إلـى قراءتـه علـى ضـوء مـا أنتجـه العقـل البشـري الغربـي مـن أدوات اسـتطاع أن ينتقـد بهـا تراثـه. ثـم يشـاء الله سـبحانه أنـه وبعـد عـام ١٩٦٧م والتـي تسـمى عـام النكسـة بـدأ التيـار الحـداثي الماركسـي يتراجـع مقابـل الاتجـاه الـديني والـذي يتمثـل فـي عـودة النـاس لـربهم، والعـودة إلـى التـراث الإسـلامي والـنهج العلمـي القـديم، وهـو مـا يعـرف بالتجديـد الإسـلامي، وقـد أدى ذلـك إلـى رجـوع بـض الحـداثيين عـن أفكـارهم، ومـنهم محمـد عمـارة، وطـارق البشـري، وعمـلا فـي مواجهـة الحداثـة لإدراكهمـا دقائقهـا[٢]، وبقـي قسـم آخـر مـن الحـداثيين لـم يتراجـع عـن أفكـاره وعمـد إلـى تغييـر أدوات الحـرب وذلـك مـن خـلال التفسـير العصـري للقـرآن، وإبعـاده عـن بنـاء عقيـدة الإنسـان، ومـن هنـا رجعـوا إلـى قـراءة التـراث الإسـلامي وأرادوا إزالـة التفسـيرات السـابقة ليبنـوا تفسـيرًا جديـدًا، لأنهـم يزعمـون أنـه لا يمكـن بنـاء تفسـير عصـري جديـد مـالم تُنـزع التفسـيرات القديمـة، فتولـد مصـطلح

---

(١) دعوى القراءة المعاصرة للقرآن الكريم، د. احمد قباوة، ص٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص٧٦.

القـراءة المعاصـرة والـذي يجمـع بـين الأدوات والمنـاهج الجديـدة، فكـان أول مـن قـدَّم قـراءة معاصـرة محمـد أركـون بمجوعـة أبحـاث بعنـوان: قـراءات فـي القـرآن[1]، ثـم تبعـه حسـن حنفـي فـي كتابـه التـراث والتجديـد، ثـم جـاء حامـد نصـر ليقـدم أكثـر مـن مشـروع فـي القـراءة المعاصـرة للقـرآن، وتـبعهم آخـرون إلـى زماننـا، فمـا كـان مـن أهـل العلـم المختصـين بالتخصصـات الشـرعية المختلفـة إلا الـرد علـى تلـك التفسـيرات، وكشـف عورهـا، ومحاكمتهـا إلـى الضـوابط العلميـة، وسـأعرض فـي هـذه المطالـب بعـض الانتقـادات العلميـة لتلك القراءات، وهي كما يلي:

---

(١) انظر: خصائص التعامل مع التراث الإسلامي عند أركون، رمضان بن رمضان، ص٩-١٠.



المطلب الأول: تأثير الخلفيات السابقة للقارئ

نظرية تعدد الاحتمالات للنصوص عند المدرسة الحداثية عند تطبيقها على الآيات والنصوص الدينية نجد أن القارئ يعدد محتملات الآية بناءً على الخلفية السابقة لديه، وعلى قدر تعدد القرَّاء تتعدد الخلفيات السابقة في أذهانهم، وبالتالي تتعدد محتملات الآية إلى ما لا يمكن تصوره من المعاني.

فمن الخلفيات التي تؤثر في فهم القارئ: الشك الذي يعيشه في فكره وخياله يجعله يقرأ النص قراءة الشك فيُحمِّل الآية معنى وضده، ويجعل هذا من قبيل تعدد القراءة، بينما أثَّرت خلفية الشك الذهنية عند القارئ على ذلك النص، ولهذا تجعل المدرسة الحداثية الخلفيات السابقة من قبيل اللزوم، " أي أن المتلقي للنص يستقبل النص وهو محمَّل بالقبليات – كما يسمونها- وهذه القبليات تؤثر في استقباله للنص وفهمه، وهذه القبليات إما أن تكون على هيئة مساءلة بين المتلقي والنص أو تكون قبليات مجردة، واختلاف هذه القبليات بين متلقي النص الواحد ينتج عنه اختلاف الفهم "(١).

فاتضح أن الخلفيات أو القبليات من عوامل ثقافية أو اجتماعية أو فكرية لها أثرٌ على استقبال النص، ولهذا لا يستطيع قارئ النص عند المدرسة الحداثية أن يتخلص من هذه الخلفيات، بل إنهم جعلوه يفهم النص بناء على خلفياته، ولهذا تتعدد القراءة، والذي جعلهم يربطون هذا الربط الوثيق بين النص والخلفيات الذهنية عند القارئ؛ لأنه لا يمكن انفكاك أي قارئ لأي نص من خلفياته الذهنية، وهي ما عبروا عنها بقولهم: مساءلة بين المتلقي والنص.

بينما في حقيقة الأمر يجب التفريق بين قضيتين:

---

(١) انظر: ظاهرة التأويل في الفكر العربي المعاصر، ص٣١٨.



١. أثر الخلفيات الذهنية للقارئ في فهمه النص.

٢. أثر الخلفيات الذهنية للقارئ على النص ذاته.

فالواقع يشهد أن الخلفيات والقبليات لها أثرٌ على فهم القارئ النص، لكن ليس لها أثرٌ على تغيير المعنى الأصلي للنص، وفرق بينهما كبير، فالإنسان لا يستطيع أن يتخلص من رواسبه الفكرية وواقعه وثقافته، فيفهم بعض النصوص بناءً على تأثره بواقعه، وهذا ليس في جميع النصوص وإنما في النصوص التي تسمح لمثل هذه الخلفيات أن تُعمِل أثرها في فهم القارئ، لكن مهما كان ذلك من الضرورة في ذهن الإنسان إلا أنَّ النص الأصلي يبقى بعيدًا عن تأثره بهذه الخلفيات، فلا يتغير معناه عما يريده قائله.





المطلب الثاني: افتراض حقيقة غائبة.

عند قراءة تطبيقات المدرسة الحداثية لتعدد الاحتمالات في النص القرآني نجد أن هناك حقيقةً غائبةً يبحث عنها القارئ من خلال معالجته النص ورموزه ودلالاته " فيُسلطُ عليه الجانب الرمزي في النص الأدبي وأسلوب الخيال والصور الفنية وتكون مهمة الفيلسوف النفاذ إلى ما وراء الخيال والقضاء على حرفية المعنى "(١)، فالاحتمال عندهم " من حيث المبدأ محاولة للبحث عن الحقائق فيما وراء الألفاظ والوقائع التي تشير إليها المعاني "(٢).

فمعنى النص عند المدرسة الحداثية موجود داخل النص إلا أنه غير بارز فيحتاج أن يُعمِل القارئ وسائله لاستخراج هذا المعنى، ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد وإنما المعنى المستخرج قد يكون رمزًا على المعنى الحقيقي داخل النص وليس هو، فمثلاً:

- آيات النبوة والرسالة: كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ الفتح: ٢٩، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ الأنفال: ٦٤، وجميع آيات النبوة والرسالة يرون أنها لا تثبت الرسالة والنبوة بالمعنى المعروف وإنما في هذه النصوص حقيقة افتراضية لا يُهتدى إليها إلا من خلال تفكيك الرموز، " فالنبوة لا تعني إمكانية اتصال النبي بالله وتبليغ رسالة منه بل هي في الحقيقة مبحث في الإنسان كحلقة اتصال بين الفكر والواقع "(٣).

---

(١) انظر: التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، حسن حنفي، الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٥، ١٤٢٢هـ، ص١٥٧.

(٢) انظر: من العقيدة إلى الثورة، ص٤/٣١١.

(٣) انظر: دراسات إسلامية، ص٣٩٧.



- وآيات الجنة والنار: لا تدل على مكان معين أسـماه الله بالجنة والنار، وذكر الله صـفاته في القرآن وبينها، وإنما هناك حقيقة غائبة وراء ذلك فهما "صورتان فنيتان من أجل إحداث آثار نفسية للترغيب والترهيب"(١).

فعلى هذا نجد أن المعنى عند المدرسـة الحداثية لا يعتمد على النص وإنما يعتمد على قوة الطاقة التخيلية في ذهن القارئ، فكلما كانت طاقته التخيلية أتم وأكمل كان إدراكه للمعنى الحقيقي الكامن في النص أقرب، " وبالتالي يصبح القرَّاء أحرارًا في قراءة النص، لهم أن يفعلوا ما يشاءون، ولهم أن يتجاهلوا قصد المؤلف، وأن يُقَوِّلُوا النص ما يريدون، ويصـبح النص خاضـعًا لصـنع القارئ يقرأ بطريقة تجعل المؤلف غائبًا عن كافة المستويات(٢).

---

(١) انظر: دراسات إسلامية، ص٣٠.

(٢) انظر: العلمانيون والقرآن الكريم، ص٧٠١.



المطلب الثالث: حيرة النص وتضارب المعاني المحتملة

تتعامل نظريات تعدد الاحتمالات للنص عند المدرسة الحداثية بفصل المعنى عن النص فكأنه لا يتعلق به ولا يرتبط معه فأصبح في الجانب التطبيقي خلل في الجهتين:

أ- حيرة النص:

إذ يكون النص حائرًا لا معنى له، وهذا انعكاس لديهم بعلاقة باطن النص بظاهره، وفرعٌ عن القول بأن النص فيه فجوات تبحث عمن يملؤها، " ففي النص فجواتٌ ومناطق يجب على الناقد أن يملأها ويُنطِقها، وأن وجود هذه الفجوات والصوامت يعني أن النص غير مكتمل "(١)، هذه الفجوات والمناطق التي تبحث عن ملء تجعل النص تائهًا في ذاته لا يثبتُ على ساق المعنى، وعلى القارئ أن يدرك أن النص الذي يحاول فهمه غير مكتمل بغض النظر عن قائله وتحقيقه لمراده، وهذه سفسطة ونفي للحقائق، فبدلاً من أن يتم تركيز القارئ على المعنى ودلالته، فإن التركيز ينصبُ على تحقيق النص أولاً، وهذا كله يؤكد أن المدرسة الحداثية تتعامل مع النصوص القرآنية معاملتها مع النصوص البشرية التي قد لا يستطيع قائلها تحقيق المعنى المراد تمامًا، وهذا منتفٍ عن كلام الله القدير سبحانه وتعالى.

ب- تضارب المعاني المحتملة:

المعاني المحتملة في نصوص المدرسة الحداثية متعددة ومتضاربة، فتعددها تعدد تضاد وتضارب وليس مجرد اختلاف، فمن الطبيعي أن يكون المعنى

---

(١) انظر: العلمانيون والقرآن الكريم، ص٧٠٨.



المحتمل مضادًّا لمعنى آخر، وكلا المعنيين محتمل في الآية عندهم.

وعلى هذا فالمعاني المحتملة تتصف بكونها:

أ . متعددة.

ب . متضاربة ومتعارضة.

ج . غير منتهية.

فالمعاني التي ترتبط بها الألفاظ لا توصل إلى اليقين الذي يريده القارئ، " إنها في الحقيقة فكرة ترتبط بموقف فلسفي يسيطر على العقل الغربي، وهو اليأس من تحصيل اليقين، مما جعل المعرفة كلها ذات طبيعة افتراضية، فهي دائمًا بانتظار التعديل والتغيير، وانهارت مقولة المعرفة الموضوعية أو المعرفة اليقينية"(١).

التضارب في المعاني المحتملة عند المدرسة الحداثية من جهتين:

أ . في ذات النص الواحد:

فالنص الواحد يحتمل عندهم معنيين متضادين، وكلا القراءتين صحيحة، ولا يوجد في الأصل قراءة خاطئة.

ب . في النصوص المتعددة:

فما يثبته نصٌّ قرآني من المقبول أن ينفيَه نصٌّ آخر، وعلى هذا يتشكل المعنى المحتمل حسب إرادة القارئ التابعة لإرادة الواقع، فيزيد المعنى بذلك اضطرابًا وحيرةً.

---

(١) انظر: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عبد العزيز حمودة، الناشر: سلسة عالم المعرفة، الكويت، ط١، ١٩٩٨م، ص١٠٥.

المطلب الرابع: إلغاء قرائن النصوص

ترتكز نظرية النص عند المدرسة الحداثية على عدة أركان(١):

١. سياق.

٢. رسالة.

٣. مرسِل.

٤. مرسَل إليه.

٥. وسيلة.

٦. شفرة.

والنص القرآني يختلف عن النصوص في كونه مترابطًا، وهو معنى المتشابه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [سورة الزمر:٢٣].

فقوله: ﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾ التشابه هو: تماثل الكلام وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضًا، فإذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر، بل يأمر به أو بنظيره أو بملزوماته، وإذا نهى عن شيء لم يأمر به في موضع آخر، بل ينهى عنه أو عن نظيره أو عن ملزوماته، وهذا التشابه يكون في المعاني وإن اختلفت الألفاظ فإذا كانت المعاني يوافق بعضها بعضًا، ويعضد بعضها بعضًا، ويناسب بعضها بعضًا ويشهد بعضها لبعض، ويقتضي بعضها بعضًا، كان

(١) انظر: الخطيئة والتكفير، ص٧.



الكلام متشابهًا، بخلاف الكلام المتناقض الذي يضاد بعضه بعضًا(١).

والقرينة هي: العلامة أو الأمارة الدالة على عدم إرادة المعنى الحقيقي، وهى قسمان:

أ . لفظية: مثل كلمة (يعظ) في قول القائل: شاهدت بحرًا يعظ الناس، وهو يريد: الرجل العظيم.

ب . غير لفظية: وهى نوعان:

١. حالية: كما تقول: رأيت بحرًا، وأنت تقصد بأنَّ أمامك عالم يعظ الناس.

٢. استحالة المعنى كقولك: قطعت حالي بالشكوى، تريد (دلت) لاستحالة النطق بمعناه الحقيقي من الحال، فهنا تشبيه الدلالة المعنوية بالدلالة اللفظية بجامع بيان الشيء في كلٍّ(٢).

والسياق من أركان النص عند المدرسة الحداثية إلا أنه في الجانب التطبيقي نجد أن القارئ لا يراعيه أبدًا، وما يثبته السياق في جانب ينفيه سياق آخر، وهكذا يكون النص عندهم متضادًا لا متشابهًا، وهذا لأن القارئ يراعي الواقع أكثر من النص.

---

(١) انظر: الرسالة التدمرية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، الناشر: المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٦٧/٢.

(٢) انظر: دراسات أصولية في القرآن الكريم، محمد إبراهيم الحفناوي، الناشر: مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، القاهرة، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، ص٢٢٤.



وجانب آخر من اختلال موضوع الدلالات في النظرية الحداثية لتعدد احتمالات معنى النص القرآني تمثل بفرض فهم للنص من خارج السياق، حيث إن النص القرآني له سياقه الخاص بالمعنى الحديث، فكما أن الشعر الجاهلي له سياقه الخاص، والسرد التاريخي له سياقه الخاص، فإنَّه لا يمكن فهم الشعر الجاهلي أو السرد التاريخي إلا بعد معرفة السياق العام لهما من ناحية الألفاظ والمدلولات والمرتكزات الأساسية[1]، فالقرآن أيضًا له سياقه الذي لا يمكن فهم معانيه والاحتمالات اللفظية إلا بمراعاة سياقها القرآني.

(١) انظر: ظاهرة التأويل في الفكر العربي المعاصر، ص٣٤٢.



المطلب الخامس: استنطاق النص بما لا يحتمله

النص عند المدرسة الحداثية خلوٌّ عن أي معنى ثابت، ولهذا فإن القارئ يستنطق النص ويحاول أن يفك علاماته ورموزه، وبذلك تنقطع الصلة بين النص وقائله لتنشأ علاقة جديدة بين النص وقارئه، ويكون القارئ متحكمًا في معاني النص أكثر من قائل النص ذاته.

فالنص عندهم لا يحمل في ذاته دلالة جاهزة ونهائية بل هو فضاء دلالي وإمكان تأويلي[1]، فعلى هذا يكون النص جسدًا بلا روح، والقارئ هو الذي يعطي النص روحه التي يفهمه بها، إلا أنها روح لا تمكِّنه من العيش ومقاومة المعاني المراد فهمها منه، وإنما هي روحٌ يمليها القارئ من واقعه محاولاً تبريره.

وعلى هذا فالقارئ هو الذي يستنطق النص، ويكون مراعيًا في هذا الاستنطاق عدة أمور:

١. أن النص لا يقول الحقيقة.
٢. أن النص متغير المعنى تبعًا للواقع.
٣. أن النص لا يحتوي على معنى موضوعي.
٤. أن كل قارئ له فهمه الخاص وقراءته الصحيحة للنص.

ففي قوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ﴾ البقرة: ٢٨٥، وكل آية ذُكرت فيها الملائكة نجد أن أصحاب المدرسة الحداثية يستنطقون نصوص الملائكة بما لا يحتمله النص، فيقولون: " هي أسماءٌ تعبر بدلالاتها على التجربة الإنسانية، بل إنها ألفاظٌ يعبر بها الإنسان عن تجاربه في الحياة، ثم تتحول الأسماء إلى معانٍ ثم إلى أشياء، ثم إلى أشخاص ثم تصبح مقدسات وفاعلات في العالم ضد

(١) انظر: نقد الحقيقة، ص٩.



الإنسان أو معه طبقًا لعواطف الإيجاب والسلب وانفعالات الخير والشر "[1].

ونصـــوص المعاد التي تشـــمل كلَّ ما يكون باليوم الآخر ابتداءً من وفاة الإنســان إلى دخول الناس الجنة أو النار تسـتنطقها المدرسـة الحداثية بما لا تدل عليه، " فهي لا تشـــير إلى وقائع مادية وحوادث فعلية، وعوالم موجودةٌ بالفعل في مكان ما يعيشـها الإنسـان في زمنٍ ما، بل هي بواعث سلوكية ودوافع للفعل للتأثير على الســـلوك والحث على الطاعة ترغيبًا تارة وتهيبًا أخرى، وهي تعبير عن عالم بالتمنِّي عندما عجز الإنسـان عن عيشــه بالفعل في عالم يحكمه القانون ويسـوده العدل، ولذلك تظهر باســتمرار في فترات الاضـــطهاد وفي لحظات العجز وحين يســود الظلم ويعم القهر، كتعويض عن عالم مثالي يأخذ فيه الإنســان حقه ويرفع الظلم عنه "[2].

فمثل هذا التفســير ما هو إلا اســتنطاق للنص القرآني بما لا يدل عليه ولا يحتمله، وهو فتحٌ للقارئ أن يُعمِل فكره في تأويل النصــوص القرآنية على ضـــوء واقعه، إذ إن ما سـبق ليس تأويلاً للملائكة على ضـوء الآية ومحتملاتها، وإنما هو صورة فنية أو شعور إنساني يعيشه الإنسان حسب اختلاف حالاته وانفعالاته.

---

(١) انظر: من العقيدة إلى الثورة، ص٤/٤٠٩.

(٢) انظر: من العقيدة إلى الثورة، ص٤/٥٣١.



المطلب السادس: تصرف القارئ بما يعود على النص بالإبطال

المدرســة الحداثية فتحت المجال أمام القارئ لقراءة النص قراءة جديدة، وخلق معانٍ لم تكن فيه من قبل، فهي أعطت الأمر كلَّه للقارئ ليفعل بالنص ما يريد، فأصبح القارئ للنصوص القرآنية عندهم يقرأ في معاني النص ما يعود على النص القرآني بالإبطال، وبهذا فالقارئ يمارس نوعين من اضطهاد النص هما:

١. إهماله معنى النص الدال عليه.

٢. إبطاله النص من خلال ما يقرؤه من معنى معارض لدلالة النص.

وذلك لأن النص عندهم " بطبيعته مجرد صــورة عامة تحتاج إلى مضــمون يملؤها، وهذا المضــــمون بطبيعته قالب فارغ يمكن ملؤه من حاجات العصــــر ومقتضــياته التي هي بناء الحياة الإنســانية التي عبَّر فيها الوحي في المقاصــد العامة، ومن ثَمَّ فالتأويل ضــــرورة للنص، ولا يوجد نص إلا ويمكن تأويله من أجل إيجاد الواقع الخاص به، لا يعني هنا التأويل بالضـــــرورة إخراج النص من معنى حقيقي إلى معنى مجازي لقرينة بل هو وضع مضمون معاصر للنص، لأن النص قالبٌ دون مضمون "(١).

فمن خلال هذه الطبيعة للنص القرآني – حسـب زعمهم– أصـبح القارئ يفهم من النص ما يضاده تمامًا، بل إنهم صرحوا بأن " المرجعية لحقوق الإنسان ليست النصوص الشرعية لكي لا تتسم بالثبات وعدم التغير، لأن هذه المرجعية لا يمكن تخطيها أو مجاوزتها لقداستها المطلقة، فضلاً عن أنها تتسم بالتجرد الفوق تاريخية

---

(١) انظر: من العقيدة إلى الثورة، ص١/٣٧٤.



واللازمكانية(١) وهذه أمور إن صحت في العقيدة والعبادة فإنها لا تجوز على حقوق البشر"(٢).

وفي تأويل قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التوبة: ٢٩، فالمدرسة الحداثية تأوله بقولهم: لا يلزم المسلمون تنفيذه اليوم، إن التطور الذي حدث في طبيعة العلاقات البشرية وفي بنية المجتمعات أدى إلى اعتماد المواطنة، وليس الدين أساس الاجتماع البشري، وجعل المساواة بين المواطنين أساس العقد الاجتماعي، ومعنى ذلك أن الإصرار على تطبيق الأمر القرآني بإرغام أهل الكتاب على دفع الجزية يمثل خطرًا على وحدة المجتمع "(٣).

فهذا التأويل يبطل النص القرآني ويجعله ضمن فترة تاريخية مضت في العهد النبوي كان لها خصوصيتها وطبيعتها وظروفها الخاصة بها.

---

(١) تعبير فلسفي يقصد به: تحقق وجود الشيء في الزمان والمكان. انظر: المعجم الفلسفي، ص٣٦٢.

(٢) انظر: الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية، خليل عبد الكريم، الناشر: دار سينا، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٩٣.

(٣) انظر: نافذة على الإسلام، للدكتور: محمد أركون، ترجمة: صالح الجهيم، الناشر: دار عطية، لبنان، بيروت ط، ١ ١٩٩٦م، ص٩٠.

المبحث الثاني: آثار القراءة المعاصرة على علم التفسير.

وفيه سبعة مطالب:

- **المطلب الأول**: **إبطال الغاية من النص**.
- **المطلب الثاني**: **انشغال القارئ بفك الرموز بدلاً من الاهتداء بالنص**.
- **المطلب الثالث**: **إلغاء فهم الصحابة رضي اللّه عنهم**.
- **المطلب الرابع**: **إلغاء المعنى دون اكتشافه**.
- **المطلب الخامس**: **تفسير الرموز وليس النصوص**.
- **المطلب السادس**: **ضياع معيار قياس الصواب والخطأ**.



بعد الجولة السابقة في الانتقادات العلمية للقرآن وذكر بعض الأمثلة التي ذكرت عرضًا، تبين لنا أن الإشكال في القراءة المعاصرة لا يكمن في تعدد تفسيرات النص القرآني، فأقوال السلف مدونة شاهدة بالاختلاف في بعض المعاني، مما جعل علماء التفسير يصنعون قواعد منهجية يحاكمون الأقوال إليها، فنشأ علم أصول التفسير ومناهجه، إنما أبرز الإشكالات في القراءة المعاصرة للقرآن عدم انضباطه في مناهج يمكن السير عليها، فلا قواعد محكمة، ولا مناهج منضبطة، وقد أثر ذلك على علم التفسير، وهذا ما سأبينه في المطالب التالية:

المطلب الأول: إبطال الغاية من النص

التفسير عند المدرسة الحداثية وبيان المعاني المحتملة خُدعةٌ؛ لأن الشرح يحل محل النص ويعيد إنتاج النص، فهو نصٌّ جديد، فالقارئ يخلق نصًّا جديدًا(١) وبهذا تبطل الغاية من النص الأصلي؛ لأن الغاية من النص هو البيان والإيضاح والعمل والتطبيق وليس إنتاج نصٍ آخر يحل محل النص الأول.

ومما يزيد هوةَ إبطال النص عند المدرسة الحداثية أن القارئ للنص عليه ألا يلتفت لمنطوق النص القرآني وإنما يعنى بما سكت عنه النص(٢)، فمهمة القارئ إذًا هي التحرر من النص وليس الاهتداء به، فالنص عندهم " مخادِعٌ مخاتلٌ وعملٌ متشابهٌ مراوغٌ فهو يلعب من وراء الذات، وإذا كان النص لا يقول الحقيقة بل يخلق حقيقةً، فلا ينبغي التعامل مع النصوص بما تقوله وتنص عليه، أو بما تعلنه وتصرح به، بل بما تسكت عنه ولا تقوله وبما تخفيه وتستبعده "(٣)، فالنص مفتوح

(١) انظر: العلمانيون والقرآن الكريم، ص٤٣١.
(٢) انظر: نقد النص، ص١٥٠.
(٣) انظر: نقد النص، ص١٥.



الدلالة لا باعتبار أنه صالح للزمان المكان وإنما باعتبار أنه يقول كل شيء ولا يقول شيئًا في الوقت نفسه، وعند ذلك لا مجال لمعرفة المعنى الصحيح للآية، وإبطال نظريات تعدد الاحتمال للمعنى تتم من خلال ما يلي:

١. أن النص لا يملك الحقيقة المطلقة.

٢. أن النص مفتوح الدلالة لاحتماله المتناقضات.

٣. أن النص فيه فراغات تحتاج إلى ملء من القارئ.

٤ــــ أن النص فيه رموز وإشارات تحتاج إلى تفكيك، وكل نص ففيه رموزه الخاصة به.

فعلى هذا الأساس تتعامل المدرسة الحداثية مع النصوص بنظرة مريبة تخلق وراءها الشك والاحتيال على النص وتعمد إهمال دلالته وإبطال معناه، فيصبح النص غير مقصود الفهم والإدراك وإنما يقصد به الحور والانفصال.

فالآيات ليس لها حقيقة معينة يمكن للقارئ معرفتها، ولا يحتاج القارئ أكثر من إعمال خياله في استجلاب صور خيالية ذهنية ولو كانت مناقضة للنص، فليس من هدف القارئ معرفة معنى النص، بل إنه في بعض المراحل عند المدرسة الحداثية يكون هدف القارئ إبطال معنى النص نهائيًّا، وبهذا تتحول علاقة القارئ للنص من مفسر يريد البيان والإيضاح إلى محتال يسعى للإبطال، ومن هنا نتجت بعض تأويلات المدرسة الحداثية مشابهة إلى قدرٍ كبير تأويلات الباطنية البعيدة كل البعد عن المعاني القرآنية.

ولئن كانت المناهج البدعية في التفسير تلوى أعناق النصوص لتمرير بدعتهم وخدمة بدعتهم – كما مضى بيان أمثلة كثيرة – فإن المدرسة الحداثية تسعى لإبطال النص وتزوير معناه وتحميله ما لا يحتمل خدمةً للواقع المعاصر وتبريرًا للفكر الغربي.



المطلب الثاني: انشغال القارئ بفك الرموز بدلاً من الاهتداء بالنص

من ركائز نظريات تعدد احتمالات معنى الآيات القرآنية عند المدرسة الحداثية رمزية النص، حتى قالوا: " لقد اشتمل القرآن الكريم على صور تمثل الرمزية العربية في الإيجاز والتعبير غير المباشر الذي قد يخفى على غير الأذكياء لا الرمزية التي يتحدث عنها المجددون بأنها فيض من مشاعر ذاتية، شبيهة بالتهويمات والرؤى والأحلام والغموض، هذه المشاعر كثيرًا ما تتحول إلى ألغاز وطلاسم، لا يملك مفاتيحها غير أصحابها، والناس يختلفون في فهم ما تدل عليه الرموز باختلاف مشاعرهم ونوازعهم "(١).

ثم إن الرموز مختلفة المشارب حسب اختلاف القراء فقد قرأ قارئ من أحد الرموز ما لا يقرأه قارئ آخر، فليس للرموز ضوابط يحتكم إليها، فمثلاً:

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾ طه: ١١٥ – ١١٦ .

فيقول أصحاب الرمزية: "وهكذا نرى أن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان في الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفسًا حرة قادرة على الشك والعصيان"(٢).

---

(١) انظر: سيكولوجية القصة، التهامي نقرة، الناشر: الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط١، ١٩٧٤م، ص١٧٥.

(٢) انظر: تجديد الفكر الديني، محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، الناشر: دار المدى، سوريا، دمشق، ط١، ١٩٩٩م، ص٩٩.



وفي قولــه تعــالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ الســجدة: ١١، فيفســرون الموت بقولهم: " الموت عبارة عن عبور الأنا من حال يرتبط بوجود جســد إلى وعي جديد ينتفي فيه عالم المحســوس والأبعاد والزمان والمكان"[١].

ولهذا أُنشــئت مدرســة باســم: المدرســة الرمزية[٢]، وعلى هذا فالقارئ عند المدرسة الحداثية ينشغل بفك رموز النص بدلاً من الاهتداء به.

---

(١) انظر: تجديد الفكر الديني، ص١٤١.

(٢) مدرسة ظهرت في القرن التاسع عشر رد فعل للنزعة الميكانيكية التي ادعت الإحاطة بفهم الكون وتفسيره عن طريق العقل والعلم، وأنكرت كل ما يندرج تحت سلطة المنطق وإدراك الحواس، إذ اعتقد الرمزيون أن تلك النزعة قاصــرة عن تفســير الواقع فضــلاً عن العوالم المجهولة في الكون والنفس، وحملهم ذلك إلى الشعور بأن وراء الإمكان الإيجابي سرًا لم يُكشــف ومجهولاً لم يســتكنه، على هذا الأســاس قام الأدب الرمزي محاولاً تطويع اللغة والأحداث للتعبير عن الحقائق المجهولة التي تلح الفطرة عليها بينما هي في نظرهم ســتظل مجهولة إلى الأبد ولا وســيلة قط إلى تقريبها إلاَّ هذا الأســلوب. انظر: الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس، الناشــر: دار كرم، بيروت، ط١، ١٩٤٩م، ص١٧.



المطلب الثالث: إلغاء فهم الصحابة رضي اللّه عنهم

تميز تفسير الصحابة بمميزات ليست لغيرهم من العصور من ذلك:

مشاهدتهم أحوال الوحي وقرائنه وأسبابه، وكونهم أهل اللسان العربي الفصيح وأصحاب البلاغة والبيان، وهم أعلم الناس بعادات العرب وأحوالها وأخبارها، وصفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم وشدة إخلاصهم وعبادتهم، فهم الجيل الذي لم يشهد التاريخ لهم مثيلاً في علمهم وإدراكهم وسعة نظرتهم لأمور الحياة، وإدراكهم لأسباب النزول، ومعرفتهم بالنسخ والمنسوخ.

وما ثبت من أقوالهم مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهذا معدودٌ من قسم المرفوع، وما ثبت مما بنوه على ما منحهم الله تعالى من أدوات الاجتهاد فيتعين أخذه والقبول به.

فمن " فسر القرآن أو الحديث وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفترٍ على الله ملحد في آيات الله، محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتحٌ لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام "(١).

وقد عرف أهل الإسلام للصحابة الكرام هذه المنزلة حتى من يمثل المدرسة العقلانية، فإنه يقر بذلك، فقد قال الشيخ محمد رشيد رضا(٢) رحمه الله: " وأما الروايات المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعلماء التابعين في

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ص١٣/٢٤٣.

(٢) محمد رشيد بن علي بن محمد شمس الدين القلموني الحسيني، بغدادي الأصل، عالمٌ بالحديث والتفسير والأدب والتاريخ، وصاحب مجلة المنار، من مؤلفاته: الخلافة والإمامة العظمى، وتفسير القرآن ولم يكمله. انظر: معجم المفسرين، ص٢/٥٢٩.



التفسير فمنها ما هو ضروري أيضًا، لأن ما صح من المرفوع لا يُقدم عليه شيءٌ، ويليه ما صح عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعاني اللغوية أو عمل عصرهم"(١).

وبعض الصحابة رضي الله عنهم فسروا القرآن آيةً آية، وأغلبهم فسروا كثيرًا من كلمات القرآن ودون ذلك عنهم التابعون رحمهم الله، مع أنهم يتباينون في فهم الآيات وإدراك معاني القرآن، وبرز منهم الخلفاء الراشدون وابن عباس وابن مسعود وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وغيرهم.

ولم يقتصر فقه الصحابة للقرآن على البيان والإيضاح وإنما في المنافحة عنه ورد التفسيرات الباطلة، كما أنهم يختلفون في بعض التفسيرات اختلاف تضاد وهو قليلٌ عنهم.

والمدرسة الحداثية لا تراعي للصحابة منزلة تختلف عن غيرهم، وترى أن تفسيراتهم ما هي إلا أقوالٌ نتيجةً لعصرهم وواقعهم ومتأثرةً بظروف زمانهم وانعكاسًا لثقافتهم، فدخل عليهم الخلل من إلغائهم تفسير الصحابة، ومحاولة الالتفاف عليه وإبطاله، ومحاصرته بالتاريخية والنسبية، ولا يقتصر موقف المدرسة الحداثية على أقوال الصحابة وإنما لهم موقفٌ آخر من السنة النبوية والطعن فيها.

ومن خلال منهجية المدرسة الحداثية دخلت الأقوال الإلحادية في كتاب الله إذ فُتح المجال لأي قولٍ أن يجد له مساغًا في القرآن ما دام أن الواقع يفرضه، والقارئ يفسح المجال أمام ذهنه وخياله.

---

(١) انظر: تفسير المنار، ص١/٧.



المطلب الرابع: إلغاء المعنى دون اكتشافه

المدرسة الحداثية بالمنهجية التي رسمتها لنفسها لا تسعى لاكتشاف معنى من النص، وإنما تبذل جهدها في إلغاء المعنى الحالي المتبادر من ظاهر الآية، وهي وإن كانت لها قراءات متعددة في المعنى إلا أن الحق لا يُعرف من خلالها، ونسبية الحقيقة تشتت الصواب من القراءات، فاقتصر دورها في الحقيقة على الهدم.

فممارسات المدرسة الحداثية على النص القرآني تحاول دائمًا تلغي المعنى الأصلي للآية فمن ذلك:

تأويلاتهم لمسائل الميراث، والآيات التي تكلمت عن المرأة والحجاب، والآيات التي تخص أحكام أهل الذمة، فإنهم ألغوا معاني الآيات وأولوها بتبريرات دنيوية توافق العصر الحالي لكنه لا توافق معاني الآيات عن طريق التأويل المنفلت.

ولهذا أصبحت المدرسة الحداثية تدَّعي صعوبة فهم الآيات القرآنية في الوقت المعاصر، واستحالة تطبيق تشريعاته في عصرنا(١)، ولم يقتصر الأمر على آيات الأحكام بل حتى الآيات التي تكلمت عن الجنة والنار وما أُعد فيهما، فيقول أركون: " ليس الوجه الديني لسورة التوبة إلا عبارة عن مجموع الصور أو التصورات التي تشكل خيالاً كونيًا: أقصد الأنهار التي تجري، والمساكن الطيبة الموجودة في جنات، تستحيل في الزمان التجريبي المحسوس الذي نعيشه "(٢)، ثم يشرح مترجم كتبه فيقول: " يقصد أركون بذلك أن وعينا الحديث الراهن يعجز عن تصديق وجود مثل هذه الجنات بشكل مادي محسوس، هذا في حين أن وعي

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص١٨.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص٩٩.



الناس في زمن النبي كان منغمسًا بالخيال، ولا يجد أية صعوبة في تصور ذلك واعتباره حقيقةً واقعةً، لقد كان الوعي آنذاك غير قادر على التفريق بين الأسطورة والتاريخ أو بين العوامل المثالية التصورية والعوامل الواقعية المادية "(١)، وكذلك الحال أيضًا في معاني قصص سور القرآن الكريم فيقول أركون عن قصة أصحاب الكهف: " هي من قبيل القصص الأسطورية، أي القصص التي تعتني بعبقرية التشكيل والتركيب والإبداع والمقدرة على الإحياء وتقديم العبرة للناس أكثر من اهتمامها بمطابقة الواقع والتاريخ "(٢).

ويقول حسن حنفي: " ألفاظ الجن والملائكة والشياطين، بل والخلق والبعث والقيامة ألفاظ تتجاوز الحس والمشاهدة، ولا يمكن استعمالها؛ لأنها لا تشير إلى واقع ولا يقبلها كل الناس "(٣).

فالاحتمال لدى المدرسة الحداثية بالمعنى الاصطلاحي غائب تمامًا؛ لأن الهدف إلغاء المعنى وإحلال معنى عصري بديلاً عنه.

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص٩٩ الحاشية.
(٢) انظر: النص الديني والتراث الإسلامي قراءة نقدية، ص١٧١.
(٣) انظر: التراث والتجديد، ص١٠٣.

المطلب الخامس: تفسيرُ الرموز وليس النصوص

المدرسة الحداثية تهتم بالرمزية كما سبق بيانه، حتى قالوا: " لقد اشتمل القرآن الكريم على صور تمثل الرمزية العربية في الإيجاز والتعبير غير المباشر الذي قد يخفى على غير الأذكياء لا الرمزية التي يتحدث عنها المجددون بأنها فيض من مشاعر ذاتية، شبيهة بالتهويمات والرؤى والأحلام والغموض، هذه المشاعر كثيرًا ما تتحول إلى ألغاز وطلسمات، لا يملك مفاتيحها غير أصحابها، والناس يختلفون في فهم ما تدل عليه الرموز باختلاف مشاعرهم ونوازعهم "(١).

إلا أن ما يذكرونه من محتملات في معاني الآيات هي في الحقيقة تفسير للرموز وليس للنصوص القرآنية، والخيال الذهني الذي أسندوه للقارئ للنصوص القرآنية ما هو إلا تفسير ذهني لما في ذهنه من الرموز، مع العلم بأن الرموز تختلف من قارئ لآخر حسب اختلافهما في الثقافة والبيئة فيختلف تبعًا لذلك تفسيرهم للرموز، وعلى هذا فما يذكره أهل المدرسة الحداثية من احتمالات في بيان معاني النصوص القرآنية ليس من تفسير النصوص وقراءتِها.

ومن بداهة العلوم النظرية أن لكل أمر ضابطًا يساهم في ضبطه وإتقانه بما في ذلك الرموز والإشارات، فإذ خلت الرموز عن الضوابط لم تكن رموزًا بالمعنى المتعارف عليه وهي ضربٌ من العبث، ومن تلك الرموز:

١. أن يكون بين الرمز وما يَرمُزُ إليه ارتباط:

وهذا ضابط جوهري بين الرمز المنضبط والرمز الذي يكون عبثًا من القول، فلابد أن يكون بين الرمز وما يرمزُ إليه ارتباط سواءً أكان ارتباطًا لغويًا أم غيره،

---

(١) انظر: سيكولوجية القصة، التهامي نقرة، الناشر: الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط١، ١٩٧٤م، ص١٧٥.



فإذا خلا عن الارتباط أصبح عبثًا إذ يحق لكل مدعٍ أن يدّعي أن كلامه عبارةٌ عن رموز، والمدرسة الحداثية أسرفت في تحميل النصوص القرآنية الرموز حيث ادَّعت رموزًا وادَّعت تفسيرًا للرموز ولم تراعِ الارتباط أبدًا وإنما كان المُراعى المصلحة والواقع.

٢. أن يكون مكتشفًا من السياق:

فإذا قُرئ السياق عرف القارئ أن المفردة هي رمز، وليست على ظاهرها، فيُعمل ذهنه في محاولة اكتشاف الرمز ومن ثَم تفسيره، والمدرسة الحداثية جعلت النصوص القرآنية الأصل فيها الرمزية، وأصبحت تبالغ في رمزية النصوص حتى لو كان النص القرآني ظاهر البيان والدلالة، وذلك كله للسعي إلى تحميل النصوص ما لا تحتمل من المعاني فيما يخدم الواقع المعاصر.



المطلب السادس: ضياع معيار قياس الصواب والخطأ

نظرية التاريخية والنسبية لدى المدرسة الحداثية فتحت احتمال القراءات كلها للنصوص القرآنية؛ لأنها جعلت القارئ هو المتحكم في النص، فمن خلال القارئ أُعيد تشكيل النص وخلقُهُ ليوافق ما يريده منه، وبهذا تكون القراءة الحداثية أضاعت معيار الصواب والخطأ؛ إذ إنها لا تحكم على قراءة الصواب دون الأخرى فكل القراءات محتملة ولها نسبة من الحقيقة ويمكن قراءة الآية من وجه باعتبارٍ، كما يمكن قراءتها من وجه آخر باعتبار آخر، بل بلغ من تناقض المدرسة الحداثية أنها تعتبر كل قراءة صحيحة ولو كانت القراءتان متناقضتين.

فالمدرسة الحداثية باعتبار أنها ترى أن القرآن نصٌّ دينيٌّ ثابتٌ من حيث منطوقه، لكنه من حيث مفهومه يتعرض له العقل الإنساني ويصبح مفهومًا يفقد صفة الثبات، فالنص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي[1]، فاحتالوا على صفة الثبات بتسليط العقل البشري عليه، وقالوا: "منذ نزل القرآن في كلمات عربية أصبح بشريًّا يجوز الطعن فيه وعليه، وتجوز مناقشته ويجوز فيه ما يجوز على الكلام البشري من خطأ وصواب "[2]، وبهذا انفتح لهم باب التأويل بلا حدود؛ إذ كل قارئ للقرآن يحق له أن يقرأ ويفهم من الآية ما يريد، ويزيد على ذلك أنه يحق له النقد والتصويب والتخطئة بلا ضابط ولا مقياس.

ومن تأمل كتابات المدرسة الحداثية في فهم النصوص وجد أن مقياس الصواب والخطأ هو موافقة الواقع من عدمه، أما ذات الاحتمالات فلا يتعلق بها صواب وخطأ، وبناءً على رأيهم فإن النصوص أصبحت مجالاً للفكر والتباين والاختلاف في القراءة والفهم والتصويب والتخطئة.

---

(١) انظر: نقد الخطاب الديني، ص١٣٣.

(٢) انظر: مفهوم النص، ص١٢



الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا الأمين، وبعد:

فقد ظهر لنا في ختام البحث ظهور مصطلح القراءة المعاصرة، وسبب استبدال المصطلحات الشرعية المعروفة كعلوم القرآن، وأصول التفسير وغيرها، مما يجعلنا نقف موقف الحذر من المصطلحات الوافدة خاصة الفكرية، إذ أنها نابعة من ثقافة وفكر، ووجدت أن القراءة المعاصرة للقرآن ترجع إلى خلل في المنهج، فأصحاب القراءة المعاصرة يريدون التحرر من سلطة النص القرآني، والتزام منهج العبودية لله، ومن هنا كانت الانتقادات التالية:

١- تأثير الخلفيات السابقة للقارئ.

٢- افتراض حقيقة غائبة.

٣- حيرة النص وتضارب المعاني المحتملة. وغيرها مما ذكر في البحث.

ثم ذكر الباحث آثار القراءة المعاصرة القرآن على علم التفسير، ومن تلك الآثار:

١- إبطال الغاية من النص.

٢- انشغال القارئ بفك الرموز بدلاً من الاهتداء بالنص.

٣- إلغاء فهم الصحابة ﷺ، وغيرها مما ذكر في ثنايا البحث.

وأوصي في ختام البحث بالتوصيات التالية:

١- بحث المرجع الفكري للقراءة المعاصرة في القديم والحديث.

٢- بحث علاقة المدرسة الحداثية ببعض أقوال السلف وتوظيفهم لها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.





فهرس الموضوعات

